مؤسسة النبأ العظيم
البحث العلمي عمادة

تنزيل الهدايات القرآنية على الواقع

«ضوابط وتطبيقات»



أ. د. فخر الدين بن الزبير المحَسِي

كلية الدراسات القضائية والأنظمة

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

تنزيل الهدايات القرآنية على الواقع

«ضوابط و تطبيقات»

تأليف:

أ. د. فخرالدين بن الزبير المَحَسي

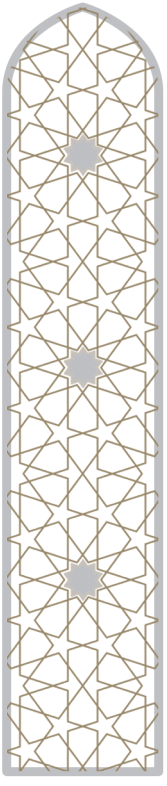
كلية الدراسات القضائية والأنظمة

جامعة أم القرىٰ – مكة المكرمة




بسم الله الرحمن الرحيم





﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

[الشورى: ٥٢].



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ رسوله محمد الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد:

فقد أنزل الله تعالىٰ كتابه العظيم هدىً للعالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥، ولا يتم هذا الاهتداء بالقرآن العظيم إلا بكمال الفهم والتأويل، والتأصيل، ثم التنزيل علىٰ الأحداث والوقائع؛ ليكون القرآن حاضرًا في حياة الناس، مصلحًا لمشكلاتهم، كما كان عليه حال نزوله زمن الصحابة: من إجابة تساؤلاتهم، أو الاستدراك عليهم، أو بيان الحقائق لهم.

ولذلك اهتم العلماء بعلم تنزيل الآيات القرآنية علىٰ الواقع؛ (فالقرآن كلام أبدي، رقم علىٰ صفحات الزمان إلىٰ قيام الساعة؛ لجميع البشر)[1].

(١) تاريخ محمد عبده: (٢/ ٦٤٣).

قال ابن القيِّم- مبيّنًا أهميته وخلل الغفلة عنه-: (ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنّه له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب، وبين فهم القرآن)[1].

فأردت بهذا البحث المختصر: تقديمَ الضوابطِ المتعلقة بتنزيل الهدايات القرآنية علىٰ الواقع، مساهمةً في ضبط هذا الباب عمومًا، ومشاركةً في تعبيد الطريق أمام الباحثين في مسيرة الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية[2]؛ لعلها تكون موجّهاتٍ تتقارب بها الأنظار، وتتوافق فيها الأفكار.

أهمية تنزيل الهدايات علىٰ الواقع:

لهذا الموضوع أهمية كبيرة، وفوائد كثيرة، يمكن إجمالها بإضاءات، تنتظم جملة من العبارات، وهي كما يلي:

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٥١).

(٢) فهو في الأصل بحث كُتب لـ «كرسي الهدايات القرآنية»؛ لضبط منهج تنزيل الهدايات علىٰ الواقع لدىٰ الباحثين في مشروع «الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية»، وهي موسوعة في ستين رسالة دكتوراه، من مختلف الجامعات العالمية.

١- تعميق عظمة القرآن الكريم في النفوس، والتأكيد علىٰ شمول هدايته لخيري الدنيا والآخرة.

٢- ربط الناس بالقرآن الكريم، وزيادة توضيح معاني آياته، وتقريبها لأفهامهم، كما قال ابن عاشور: (مشاهدة الواقع، مما يهدي إلىٰ تأويل هذه الآية)[١].

٣- تحقيق الغاية من إنزال القرآن، وهي إصلاحه لواقع الناس أفرادًا ومجتمعات.

٤- ضرورة التأصيل والتقعيد للموضوع؛ لخطورته؛ حيث يعتبر توقيعًا عن الله تعالىٰ.

٥- شغف أكثر الناس به، وتلقفهم لكل ما يقال فيه، وتسلط غير المؤهلين عليه، مما يستدعي ضبطه.

٦- كثرة الأطروحات العلاجية البعيدة عن الهدي القرآني، والفتن الواقعة بسبب ذلك، وضرورة توجيهها.

٧- إحياء طريقة السلف والعلماء في اعتماد القرآن الكريم منهجًا أصيلًا لإصلاح الواقع[٢].

---

(١) التحرير والتنوير: (٦/ ٤٨).

(٢) ينظر: تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند المفسرين، للدكتور عبد العزيز الضامر =

الدراسات السابقة:

كتبت كثير من البحوث حول تنزيل آيات القرآن الكريم علىٰ الواقع:

* ومن أوائلها: كتاب (تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند المفسرين): دراسة وتطبيق[1]، للدكتور عبد العزيز الضامر، وهو عمدة من جاء بعده، وخصه في القسم التطبيقي بتفسيري: محمد رشيد رضا، وعبد الحميد ابن باديس.

* ومنها: بحث (تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند ابن القيِّم)، للأستاذ الدكتور يحي زمزمي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية.

* ومنها: بحث (منهج العلماء في تنزيل الهدايات علىٰ الواقع)، للأستاذ الدكتور محمد العواجي، مقدّم لمؤتمر مقدس ٨ بماليزيا، ٢٠١٨م، وفيه بيان لمناهج عدد من المفسرين.

وغيرها.

وأما التأصيل لتنزيل الهدايات القرآنية علىٰ الواقع، ووضع

= (ص: ٧٩) وما بعدها، تنزيل الآيات عند ابن القيِّم، للأستاذ الدكتور يحي الزمزمي (ص: ٢٥).

(١) وقد طبع في جائزة دبي، عام: (١٤٢٨هـ)، واستفدت منه في هذا البحث.

قريب من ثلاثين ضابطًا؛ فهذا ما لم أجد فيه مؤلفًا؛ لذلك كان هذا البحث؛ لتكميل الجهود المباركة السابقة.

منهج البحث:

١- مراعاة الاختصار قدْر الإمكان، والجمع للضوابط، مع وضوحها، وطي دلالتها؛ ليحقق البحث مقصوده من التأصيل.

٢- عدم إكثار النقل عن المفسرين؛ حتىٰ لا يطول البحث بما يمكن الاستغناء عنه، فكتب التفسير متوفرة، وكثير من الموضوعات مكررة.

٣- محاولة الاستقصاء في كل قسم علىٰ طريقة التلخيص والاختصار.

٤- التيسير في العبارات، وتخفيف المصطلحات المختصة بالعلوم قدْر الإمكان.

٥- ألحقت بالبحث عرضًا لمضامينه؛ ليستفاد منه في التعليم والتأهيل.

٦- راعيت المنهج العلمي في التوثيق، والعزو، والتخريج.

خطة البحث:

بدأت البحث بهذه المقدمة، ثم تمهيد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالهدايات القرآنية.

المطلب الثاني: التعريف بمفهوم تنزيل الهدايات علىٰ الواقع.

المطلب الثالث: التعريف بمصطلحات ذات علاقة بالتنزيل.

ثم قسّمت الضوابط في تنزيل الهدايات علىٰ المراحل الإجرائية الثلاث، وهي:

١- مرحلة التأصيل: وفيها ضوابط للهدايات في صياغاتها، وتصنيفاتها.

٢- مرحلة التحليل: وفيها ضوابط لتحليل الواقع في جميع معطياته.

٣- مرحلة التنزيل: وفيها ضوابط في طريقة إنزال تلك الهدايات علىٰ الواقع.

كل ذلك علىٰ سبيل الإيجاز، المبرأ عن وصمة الإلغاز.

ثم الخاتمة، والفهارس.

والله الموفق،،،

التَّمْهِيد

وفيه ثلاثة مطالب:

* المطلب الأول: تعريف الهدايات القرآنية

الهدايات: جمع هداية، وأصلها من هَدَىٰ، يهْدي، هَدْيًا، وهُدًى، وهِدَايَةً، وهِدْيَةً.

قال ابن فارس: (الهاء والدال والحرف المعتلّ: أصلان، أحدهما: التقدّم للإرشاد، والآخر: بَعثة لَطَفٍ، فالأوَّل قولُهم: هدَيتُه الطَّريق هِدايةً، أي تقدّمتُه لأرشدَه، وكلُّ متقدِّمٍ لذلك هادٍ)[1].

وقال الجرجاني: (الهداية الدلالة علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريقٍ يوصل إلىٰ المطلوب)[2].

والهدايات: جمعٌ درج عليه العلماء المتأخرون[3]، وإن

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: هدىٰ، (٦/ ٤٢- ٤٣).

(٢) التعريفات: (ص: ٣١٩)، وينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٨٨).

(٣) ينظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ٢٨٣).

كان ليس علىٰ قاعدة جمع المؤنث السالم، وتوجيهه أنه جاز؛ لكثرة متعلقاته[١].

اصطلاحـًا: الهدايات القرآنية باعتبارها العلمي، يمكن اختصار تعريفها، بأنها:

(الإرشادات المستفادة من الآيات، وفق منهج علمي، بدلالة ظاهرة أو خفية)[٢].

❋ فهي إرشادات قرآنية: ولا تكون إلا إلىٰ الخير، أو التحذير من الشر.

❋ واستفادتها من الآيات: لابد أن تكون بمنهج علمي، وطرق تأصيلية[٣].

❋ وقد تكون هذه الإرشادات ظاهرة واضحة، وقد تكون خفيّة تحتاج إلىٰ استنباط.

---

(١) ينظر في ضوابط الجمع: موسوعة النحو والصرف والإعراب، لإيميل بديع (ص: ٣١٦- ٣١٧).

(٢) ينظر: الهدايات القرآنية (١/ ٤٤)، وقد عدّلت في التعريف بما يزيده ضبطـًا، ويدفع عنه الاعتراض.

(٣) وقد تم تفصيلها في كتاب الهدايات القرآنية، في مبحث: طرق العلماء في استخراج الهدايات.

* المطلب الثاني: مفهوم تنزيل الهدايات القرآنية على الواقع

تكلم الباحثون حول مفهوم تنزيل الآيات علىٰ الواقع، وتنوعت تعريفاتهم له[1]؛ وذلك لتأخر استعماله، وتعدد كلماته، وفي هذه العجالة لن أطيل في جمعها ومناقشتها؛ لأن الكلام هنا عن تنزيل الهدايات، فسأذكر التعريفات من خلال التأمل في مضامين هذا العلم.

وعليه فيمكن تعريف: تنزيل الهدايات القرآنية علىٰ الواقع، بعدّة تعريفات صحيحة، منها:

١- تقويم الواقع المعاصر، من خلال تطبيق الإرشادات القرآنية؛ تأييداً وإصلاحـًا، وفق منهج علمي.

٢- الربط بين الدلالات القرآنية والواقع المعاصر؛ لتقويمه، وفق منهج علمي.

٣- مقابلة الهدايات القرآنية علىٰ الواقع المعاصر؛ لتقويمه وفق منهج علمي.

---

(١) ينظر: تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند المفسرين، للضامر (ص: ٣٣).

فظهر من خلال هذه التعريفات؛ أنها عملية يتم من خلالها الربط بين الواقع، وبين الهدايات القرآنية؛ للنظر في مدىٰ تحقق هذه الهدايات، وإمكانية تطبيقها، ومن ثَمّ تعزيز ما كان موجودًا، وتكميل ما كان منقوصًا، وإصلاح ما كان منقوضًا.

* المطلب الثالث: مصطلحات ذات علاقة

تنزيل الآيات علىٰ الواقع مفهوم عام، وقد تتداخل معه مصطلحات ثلاثة، هي: الاستشهاد، والاستدلال، والتفسير العلمي[1].

وسأبين المقصود بها اختصارًا، مع تجلية وجه العلاقة بينها.

أولاً: الاستشهاد، وهو: طلب نص يشهد لواقعة معيّنة[2].

وأمثلته كثيرة، منها: استشهاد النبي ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ الكهف: ٥٤ ، لما قال علي رضي الله عنه: «إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا»[3].

وكذلك استشهاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

(١) والتفريق بين هذه المصطلحات يعتبر الضابط الأول، وما بعده من مراحل التنزيل الثلاثة يتضمن تسعة وعشرين ضابطًا، وبها تكتمل العِدّة ثلاثين.

(٢) تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند المفسرين، للضامر (ص: ٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتىٰ أصبح، برقم: (٧٧٥).

ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ آل عمران: ١٤٤ ، وذلك عند وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتىٰ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية، حتىٰ تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[1].

فعلىٰ هذا يكون الاستشهاد أخصَّ من عموم التنزيل، من وجهين:

الوجه الأول: أن الاستشهاد يكون بالآية، وأما التنزيل فقد يكون تنزيلاً لآية، أو لدلالات علىٰ معنىٰ كلي مستفاد من مجموعة من الآيات.

الوجه الثاني: أن الاستشهاد يكون في واقعة معيّنة، وأما التنزيل فيشمل تقويم الواقع، سواء تم الاستشهاد علىٰ بعض أحداثه، أو عموم أحواله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول علىٰ الميت، (٢/ ٧١)، تعليقاً بصيغة الجزم.

ثانيًا: الاستدلال، وهو: طلب نص يدل علىٰ حكم معيّن [1]

فهو متعلق بالأحكام الشرعية، كعامة الاستدلالات علىٰ المسائل العَقَدية والفقهية وغيرها، نحو الاستدلال بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ البقرة: ٤٣، علىٰ وجوب الصلاة والزكاة.

وعليه يكون الاستدلال أيضًا أخصَّ من التنزيل؛ لأن التنزيل تقويم للواقع:

فقد يكون ببيان بعض الأحكام في الأحداث والوقائع، فيسمىٰ استدلالًا.

وقد يكون بتكميل النقص، أو إصلاح الخلل، دون التعرض للحكم.

(١) ينظر تعريفه الاصطلاحي في: التعريفات للجرجاني (ص: ١٧)، والكليّات للكفوي (ص: ١١٤).

ثالثًا: التفسير العلمي، وهو: بيان دلالات الآيات علىٰ المكتشفات العلمية، والنظريات الحديثة [1]

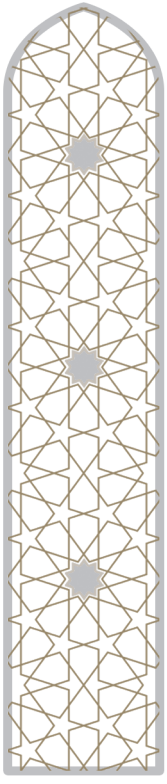
فهو تفسير للنصوص، وبيان لتضمنها دلالةً ظاهرة أو خفيّة علىٰ بعض المكتشفات، كتفسير آيات الأجنّة والفَلَك بالنظريات العلمية المتعلقة بها.

بينما يعتبر التنزيل مرحلةً تالية للتفسير، ومترتبة عليه.

كما أن التنزيل يتناول الواقع عمومـًا، والتفسير العلمي يتعلق بالجانب العلمي التخصصي، فهو نوع خاص من التنزيل، لا يدخل في هذه الدراسة.

فهذا وجه الفرق بينهما، مع اتفاقهما في النظر المعاصر للنص.

(١) ينظر: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد الذهبي (٢/ ١٨٠).



المبحث الأول:

الضوابط في مرحلة التأصيل للهدايات

هنا جملة من الضوابط التي ينبغي أن يستصحبها من يريد تنزيل الهدايات على الواقع، وذلك منذ بداية صياغته للهدايات؛ ولذلك أسميتها بـ: مرحلة التأصيل، وتفصيلها من خلال المطالب التالية:



* المطلب الأول: الإيمان بشمول القرآن تأصيلاً أو تفصيلاً، وضرورة التفريق بينهما

لا يختلف المسلمون في أن القرآن الكريم اشتمل علىٰ كل ما يحتاجه الناس في دنياهم وأخراهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ النحل: ٨٩ ، قال الرازي: (أي: كل شيء بكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم، فقد فصلناه وشرحناه)[1].

لكن لا ينبغي أن يغيب عن الخواطر أن هذا التبيان جاء علىٰ طريقتين:

طريقة التفصيل:

كتفصيله في بعض المحرمات، نحو قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ المائدة: ٣.

(١) التفسير الكبير: (٢٠/ ٣٠٧).

وطريقة التأصيل:

كبيانه لأصول التحليل والتحريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ الأعراف: ١٥٧، وهي الأغلب، قال الطاهر ابن عاشور: (ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًّا في الغالب، وجزئيًا في المهم، فقوله: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ النحل: ٨٩، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ المائدة: ٣، المراد بهما: إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس)[1]، فدل القرآن علىٰ أصول المصالح والمفاسد، وأصول الوسائل والمقاصد، قال البخاري: (لا أعلم شيئا يحتاج إليه إلا هو في الكتاب والسنة، فقال ابن أبي حاتم: يمكن معرفة ذلك كله؟! قال: نعم)[2].

والتأصيل يعتبر نوعًا من التفصيل؛ لأنه ينزّل في كل زمان ومكان وأعيان؛ ولذلك وصف به القرآن، وهو من دقائق توجيه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ الأعراف: ٥٢، وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٤٠).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي: (١٢/ ٤١٢).

﴿ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ هود: ١ ، وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ الأعراف: ٣٢، وغيرها من الآيات في هذا المعنىٰ.

قال رشيد رضا: (فصّلنا آياته تفصيلًا علىٰ علم منا بما يحتاج إليه المكلّفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم)[1].

فمن يسعىٰ لتنزيل الهدايات علىٰ الواقع يوازن بين الطريقتين: فلا يتكلف التفصيل في مواضع التأصيل، كما لا يكتفي بالتأصيل، ويُغفل ما تحتمله الدلالات من التفصيل، وهو محكٌ دقيق النظر، يتطلب تقليب الفكر.

(١) تفسير المنار: (٨/ ٣٩٣).

* المطلب الثاني: تحري الهدايات الكليّة، وصياغتها بما يمكن تنزيله

الهدايات الكليّة هي التي تدل علىٰ معانٍ عامة تنتظم جملًا من الهدايات الجزئية.

وغالب التنزيل في باب الهدايات يكون في الهدايات الكليّة؛ لكونها قواعد ظاهرة منضبطة، ومحل اتفاق في الجملة، ولكون الهدايات الجزئية لا يمكن حصرها.

وهذا لا يعني عدم إمكان التنزيل في الهدايات الجزئية، ومما توارد علىٰ الذهن من ذلك: تنزيل قوله تعالىٰ: - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ إبراهيم: ٤- علىٰ الواقع تقويمًا؛ ببيان ضرورة التوسع في الوسائل الدعوية، ومخاطبة أصحاب اللغات بلغاتهم، وبما يناسب تنوع ثقافاتهم، وقد بذلت في ذلك جهود مشكورة، لكنها لا تزال بحاجة إلىٰ زيادة تكميل.

ومع ذلك فينبغي التركيز أولًا علىٰ الهدايات الكليّة، وصياغتها بأساليب يمكن تنزيلها علىٰ الواقع، وأمثلة ذلك كثيرة، منها: في قوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا

﴿كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ الروم: ٤١، يقول ابن القيِّم: (ونزِّلْ هذه الآيةَ علىٰ أحوال العالم، وطابِقْ بين الواقع وبينها، وأنت ترىٰ كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا، أحدث لهم ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلْقهم، وصورهم وأشكالهم، وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم)[1].

فالهداية الكليّة هنا: أن المعاصي سبب لهلاك الأمم، ونحن نرىٰ تصديقها في كل زمان ومكان، وكأنّ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلم عن واقعنا الآن!!

فظهور الفواحش أدىٰ إلىٰ انتشار الأمراض التي تفتك بالمجتمع، كما هو مشاهد معلوم، وفي هذا حديث عظيم، يحكي حقيقة ناطقة، حيث قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أقبل علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا معشر المهاجرين: خمس إذا

(١) زاد المعاد: (٤/ ٣٣٣).

ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»[1].

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب العقوبات، برقم: (٤٠١٩)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٥٨٢) وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني كما في السلسلة الصحيحة، برقم: (١٠٦).

* المطلب الثالث: مراعاة أحوال النزول، واستحضارها

المقصود بأحوال النزول: ما هو أعم من السبب الخاص، فهو يشمل أسباب النزول، وزمان النزول، ومكانه، والواقع الذي نزلت فيه الآيات:

كحالة الخوف، أو الأمن والقوة، أو الضعف والحالة الاجتماعية، ومنه المجتمع المكي والمدني، وما لكل واحد منهما من خصائص[1].

فهذه الأحوال تُلهم المتدبر مزيدًا من المعاني الواقعية، التي قد لا يدل عليها ظاهر اللفظ؛ ومعلوم أن العبرة في النصوص بعموم ألفاظها، وليس بخصوص أسبابها، لكن أحوال النزول تقوّي التأصيل الذي يفتح مجالات أوسع للتنزيل.

ومثال ذلك: ما ذكره القرطبي عن نفسه - وهو يستحضر سبب نزول[2] قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ

(١) ينظر: الهدايات القرآنية (٢/ ٥٢٦)، وقد فصّلته في مبحث: طرق العلماء في استخراج الهدايات.

(٢) وهو «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ القرآن فلم تره العوراء أم جميل»، أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦١)، وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي. ينظر: صحيح السيرة للألباني (ص: ١٣٨).

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ الإسراء: ٤٥، حيث قال: (ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور، من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدو، وانحزت إلىٰ ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض، قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس، وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليّ، ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: «هذا ديبلة»، يعنون: شيطانًا، وأعمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً علىٰ ذلك)[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٠/ ٢٧٠).

* المطلب الرابع: تصنيف الهدايات باعتبار مجالاتها المختلفة ولو ذهنيًا

هذه المرحلة هي المؤصّلة لما بعدها؛ فكان لابد من إحكامها، ومن ذلك التصنيف الذهني للهدايات في ضوء المجالات المختلفة، وهي مجالات عديدة عامة شاملة، ففي القرآن العظيم كما سبق: هداية الدنيا والآخرة، وهداية العقيدة والعمل، وهداية العبادة والمعاملة، وهداية الفرد والجماعة، وهداية الأسرة والمجتمع، وهداية الدولة والأمة، وهداية المؤمن والكافر، وهداية القوي والضعيف، وهداية الحائر والمهتدي، وهداية الذكر والأنثى، وهداية النفس والعقل والجسد، وغيرها[1].

وقد صنفت هذه المجالات إلى: العَقَدية، والعلمية، والتعبدية، والأخلاقية، والفكرية، والدعوية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسة، والإعلامية، ونحوها مما يجدّ.

فهذا التصنيف يسهّل بعد ذلك تنزيل الهدايات بحسب نوع الواقع المراد تقويمه، ففي الجانب العَقَدي، والنوازل الفكرية: تنزّل الهدايات العَقَدية، وفي الجانب السلوكي: تنزّل الهدايات

(١) ينظر: الهدايات القرآنية (١/ ١٦٨).

الأخلاقية، وقد يُعالَج واقعٌ معين بعدد من المجالات المختلفة للهدايات.

ومثال ذلك: عند علاج ظاهرة الإلحاد: تنزّل الهدايات العَقَدية العقلية، والتي تؤصل للإيمان بالله تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الطور: ٣٥ - ٣٦، ثم يؤصل للجانب التربوي والأخلاقي؛ لكون أكثر أسباب الإلحاد شهوانية تحلُّلية؛ فالشهوات والمحرمات هي بريد الانسلاخ من التدين؛ ولذلك سعىٰ أعداء الرسالة في فتح جميع أبوابها، وتيسير مختلف أسبابها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ النساء: ٢٧، قال السعدي: (يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلىٰ طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلىٰ مَن الشقاوةُ كلُّها في اتّباعه، فإذا عرفتم أن الله تعالىٰ يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولىٰ الداعيين، وتخيروا أحسن الطريقتين)[1].

(١) تفسير السعدي: (ص: ١٧٥).

* المطلب الخامس: التفريق بين الحصر والتمثيل، والاحتجاج والاستئناس في آثار السلف

لاشك أن السلف من الصحابة وأتباعهم منارات للاقتداء، ومدارج للارتقاء، ومعيار للاهتداء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ البقرة: ١٣٧، والأصل أن يصدّر المفسر من طريقتهم، فهم الأعلم بالتأويل والتنزيل، كما ذكر أيوب السختياني: (أن رجلًا قال لمطرّف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدّثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرّف: والله ما نريد بالقرآن بدلًا، ولكن نريد مَن هو أعلم بالقرآن منّا)[1].

ولكنّ كثيرًا من آثار السلف في التفسير يراد بها ذكر بعض أفراد العموم، والتمثيل لا الحصر، ومثال ذلك: ما ثبت عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالىٰ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ آل عمران: ١٠٦: «أنّ من تسْوَدُّ وجوههم هم الخوارج»[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: (٢/ ١١٩٣)، ومقصوده الأحاديث والآثار.

(٢) رواه الترمذي في السنن، كتاب التفسير، باب سورة آل عمران، برقم: (٣٠٠٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٩-١٥٠)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وكذلك قول المغيرة بن شعبة في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ الأنفال: ٢٧: «نزلت هذه الآية في قتل عثمان رحمة الله عليه»[1].

فهذه الآثار ونحوها لا يراد بها حصر المعنىٰ فيما ذكر، وإنما هي من باب التنزيل؛ لدلالة اللفظ العام عليه، فالمعنىٰ يشملها، ويشمل غيرها.

قال ابن القيِّم- في قوله تعالىٰ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ النحل: ٧٥ -: (ومن لوازم هذا المَثَل وأحكامه: أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر علىٰ شيء، فهذا مما نبه عليه المَثَل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهًا علىٰ إرادته، لا أن الآية اختصت به، فتأمّله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس، وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظانّ أن ذلك هو معنىٰ الآية التي لا معنىٰ لها غيره، فيحكيه قوله)[2].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: (١٣/ ٤٨٢)، وفي إسناده مقال، كما ذكر المحقق.

(٢) إعلام الموقعين: (١/ ١٢٤).

كما أنها إن لم تكن محل اتفاق، وكانت من مواطن الاجتهاد أصبحت للاستئناس، وليست للاحتجاج، وهذا لابد من تأصيله عند ذكر الهداية؛ حتىٰ لا يحجّر باب تنزيلها.

* المطلب السادس: اعتبار الهدايات حاكمة على الواقع لا العكس

باب التنزيل يصدر أصالة من دلالات النصوص، فلا ينبغي أن يطغىٰ الواقع علىٰ عاطفة الناظر؛ ليطوّع النص، ويجيّره علىٰ رؤيته، فليس كل ما يمليه الواقع ينبغي تعاطيه، كما قد يفهم البعض، وحجتهم الارتجالية في ذلك أن الإسلام جاء لتحقيق المصالح، ثم يأتي أمثلهم طريقة ليتلمس بعض شوارد التأويلات، ويقتنص متناثر الأقوال.

ومثال ذلك: تنزيل بعضهم قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الأنبياء: ١٠٥، بأن الوارث لها الآن هم الغرب، فيطغىٰ هذا الواقع علىٰ عقله، ويغطي علىٰ قلبه؛ ليبين أن الآية تحتمله؛ لأن الصالح لا يشترط أن يكون مسلمًا، مادام يصلح الأرض ويعمرها، ولا يسعىٰ في إفسادها، قال ابن باديس: (رأىٰ بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم علىٰ الأرض- وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان- فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم

الصالحون، الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الآية: الصالحون لعمارة الأرض.

فيالله للقرآن، وللإنسان، من هذا التحريف السخيف!! كأنّ عمارة الأرض هي كل شيء؛ ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجّت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروّعت بالفتن والحروب المخرّبة الجارفة، وهدّدت بأعظم حرب تأتي علىٰ الإنسانية من أصلها، والمدنية من أساسها)[1].

ثم أجاب عن الشبهة علميًا فقال: (هذا التأويل إنما يحتاج إليه أن لو كانت الآية هكذا: «إن الأرض لا يرثها إلاّ عبادي الصالحون» بطريق الحصر فيهم.

أما لما كانت الآية لا حصر فيها؛ فلا حاجة إلىٰ هذا التأويل، بل في لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة علىٰ أنها كانت لغيرهم، فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح، وقد جاء التنبيه علىٰ أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم، في

(١) ينظر: مجالس التذكير (ص: ٣٤٩).

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ الأعراف: ١٢٨.

فيرثها الصالحون نعمة، ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير)[1].

(١) مجالس التذكير: (ص: ٣٤٩).

* المطلب السابع: التفريق بين السياقات المختلفة

السياق هو الموجه لدلالة النص؛ فهو من أهم مقوّمات تدبر القرآن الكريم واستنباط هداياته، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية، وما بعدها، وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد، وعرف الهدىٰ والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبيّن معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد ذلك المفسرون)[1].

فلذلك لابد من التفريق بين السياقات المتنوعة، كالسياق الأخروي، والسياق الدنيوي، وقد قرّر ذلك ابن عاشور فقال: (ومما يجب التنبيه له أن مراعاة المقام في أن ينظم الكلام علىٰ خصوصيات بلاغية؛ هي مراعاة من مقوّمات بلاغة الكلام، وخاصة في إعجاز القرآن، فقد تشتمل آية من القرآن علىٰ خصوصيات تتساءل نفس المفسر عن دواعيها وما يقتضيها،

(١) مجموع الفتاوىٰ: (١٥/ ٩٤).

فيتصدىٰ لتطلب مقتضيات لها ربما جاء بها متكلفة أو مغصوبة، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلىٰ مواقع ألفاظ الآية، في حال أن مقتضياتها في الواقع منوطة بالمقامات التي نزلت فيها الآية)[1].

وقد غلط بسبب ذلك بعض من يتحدث عن تنزيل الآيات، كمن ذهب إلىٰ أن الأولياء يتصرفون في الكون، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الزمر: ٣٤، مع أن السياق حول كرامتهم في الآخرة؛ فلا أحد يعطىٰ كل ما يشاؤه في الدنيا، حتىٰ صفوة المرسلين، بدءً بنوح مع ولده وزوجه، وانتهاءً بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مع عمه وقومه.

ومثله: من ذهب إلىٰ أن ظهور ما يسمىٰ بحدائق الحيوانات، وحبسها في أقفاص، مما ذكر في القرآن بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥﴾ التكوير: ٥ ، والسياق حول يوم القيامة!!

وكذلك التفريق بين سياق التهديد وسياق التخيير، كما غلط كثير من المعاصرين في تنزيل قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ الكهف: ٢٩، والاستشهاد بذلك علىٰ دعوىٰ حرية اختيار الأديان.

(١) التحرير والتنوير: (١/ ١١١).

ومنه التفريق بين السياق العام، والسياق المختص بالكفار؛ لذلك قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن الخوارج: «إنهم انطلقوا إلىٰ آيات نزلت في الكفار، فجعلوها علىٰ المؤمنين»[1]، أي: هي في سياق يختص بهم، وليس من باب التحذيرات العامة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، (١٢/ ٢٨٢)، تعليقاً بصيغة الجزم.

* المطلب الثامن: تعميم المعاني المحتملة وتكثيرها ما أمكن

الأصل التعميم في دلالات القرآن، ويكون العموم في الأزمان والأماكن والأحوال والأعيان، ولا يقصر اللفظ علىٰ بعض معانيه إلا ببرهان؛ ولذلك فكثير من أقوال المفسرين هي مما يحتمله اللفظ، ويمكن الجمع بينها.

قال الطبري: (والكلمة إذا احتملت وجوهًا: لم يكن لأحد صرفُ معناها إلىٰ بعض وجوهها دون بعضٍ، إلا بحجة يجب التسليم لها)[1].

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ التوبة: ٤١، قال الشوكاني: (قيل: المراد منفردين أو مجتمعين، وقيل: نشاطًا وغير نشاط، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: شبابًا وشيوخًا، وقيل: رجالًا وفرسانًا، وقيل: من لا عيال له، ومن له عيال، وقيل: من يسبق إلىٰ الحرب كالطلائع، ومن يتأخر كالجيش، وقيل غير ذلك.

(١) تفسير الطبري: (١/ ٣١٥).

ولا مانع من حمل الآية علىٰ جميع هذه المعاني؛ لأن معنىٰ الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت)[1].

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ﴾ الأنفال: ٦٠، قال السعدي: (أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية، والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك مما يعين علىٰ قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات: من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلّم الرمي، والشجاعة والتدبير)[2].

وكذلك مفهوم الأمانة، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ الأحزاب: ٧٢، قال القرطبي:

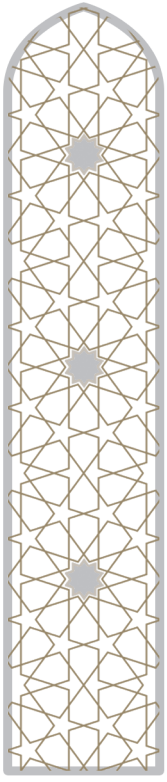
(١) فتح القدير: (٢/ ٤١٤).

(٢) تفسير السعدي: (ص: ٣٢٥).

(والأمانة تعم جميع وظائف الدين، علىٰ الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور)[1].

وشواهد ذلك كثيرة عند المفسرين، وهو من أسرار الإعجاز القرآني.

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٤/ ٢٥٣).



المبحث الثاني:
الضوابط في مرحلة التحليل للواقع

بعد صياغة الهدايات في مرحلة التأصيل؛ تأتي مرحلة النظر إلىٰ الواقع، وتحليله في ضوء تلك الهدايات؛ ولذلك أسميتها بـ: مرحلة التحليل، وتفصيلها من خلال المطالب التالية:



المطلب الأول: تقسيم الواقع إلى المجالات المختلفة مع مراعاة مقاصد الشريعة

سبق الكلام عن تصنيف الهدايات في المرحلة التأصيلية، والكلام هنا عن تقسيم النظر إلىٰ الواقع عند تحليله إلىٰ جوانب متعددة، وهي الجوانب العَقَدية والعلمية، والتعبدية والأخلاقية، والفكرية والدعوية، والاقتصادية والاجتماعية، والسياسة والإعلامية وغيرها.

مع مراعاة مقاصد الشريعة التي راعت الضرورات الخمس، وهي: الدين والنفس والعقل والعرض والمال؛ وذلك حتىٰ تكون القراءة متكاملة، من حيث المزاوجة بين الواقع والشرع، والترتيب، والتسلسل.

ومن ذلك تفسير مجاهد لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ غافر: ٤٣، قال: (هم السفَّاكون الدماء بغير حقها)[1]، وعموم الآية يشمل هذا المعنىٰ وغيره، ولكنه تنزيل علىٰ واقعه، في مقصد حفظ النفس الذي انتهكه بعض ولاة زمانه.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢١/ ٣٩٢)، بسند صحيح، كما في التفسير الصحيح لحكمت بشير: (٤/ ٢٦١).

وأول ما يبدأ به في النظر الواقعي: الجانب العقائدي الذي يتضمن حفظ أصل الدين، ثم بقية أبواب الدين ما ينتظم في الواجب أو الأكمل، ثم ما يتعلق بحفظ الأنفس وما في الواقع من مظاهر متعلقة به، سلبًا وإيجابًا، وهكذا في بقية الضرورات، وما تحتها من الحاجيات والتحسينيات.

* المطلب الثاني: استقراء الجوانب الإيجابية في مختلف جهات الواقع

الأولىٰ في النظر إلىٰ الواقع البدء بالجوانب المضيئة؛ لتعزيزها وتكميلها؛ فإن التنزيل لا يقصد به علاج الخلل فقط كما سبق في مفهومه، وإنما يراد به تطبيق هدايات الآيات علىٰ الواقع بخيره وشره، والبدء بالخير هو الأفضل؛ لأنه الأصل في هذه الأمة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدرىٰ أوله خير أم آخره»[1].

كما أن في البدء بالخير تحفيزاً لزيادته ونشره، وترغيباً في ترك الشر وتجنبه، ولكن ذلك كما هو ظاهر مقيد بحدود ما تم استخراجه من هدايات.

ومثال ذلك: قول ابن العربي-عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ الأحزاب: ٣٣ -: (ولقد دخلت نيّفًا علىٰ ألف قرية من برية، فما رأيت

(١) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (١٢٣٢٧، ١٢٤٦١، ١٨٨٨٨١)، والترمذي في السنن، أبواب الأمثال، برقم: (٢٨٦٩)، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة، برقم: (٢٢٨٦).

أصون عيالًا، ولا أعف نساءً من نساء نابلس، التي رمي فيها الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالنار، فإني أقمت فيها أشهرًا، فما رأيت امرأة في طريق، نهارًا، إلا يوم الجمعة، فإنهنّ يخرجن إليها حتىٰ يمتلئ المسجد منهنّ، فإذا قضيت الصلاة، وانقلبن إلىٰ منازلهنّ لم تقع عيني علىٰ واحدة منهنّ، إلىٰ الجمعة الأخرىٰ)[1].

(١) أحكام القرآن: (٣/ ٥٦٩).

* المطلب الثالث: حصر المشكلات، والتحديات القائمة

بعد استقراء جوانب الخير في الأمة، لابد من حصر المشكلات، وجمعها علىٰ التصنيفات السابقة، وفي ضوء الهدايات المستخرجة كذلك، وينبغي حصر ما يعتبر ظاهرة عامة، وليست مجرد ممارسات خاصة؛ فإنها لا يمكن إحصاؤها أو استقصاؤها.

ومثال ذلك: ظاهرة الإحداث في صور العبادات التي ذكرها القرطبي في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ الزمر: ٢٣ ، فقال: (أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلىٰ الله، وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام، من الزعيق والزئير.. فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، ومن لم يكن كذلك فليس علىٰ هديهم، ولا علىٰ طريقتهم)[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ٣٦٦).

ومنه قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ النساء: ٣٢: (وقد أصبح هذا التمني - في زماننا هذا - فتنة لطوائف من المسلمين، سرت لهم من أخلاق الغلاة في طلب المساواة، مما جرّ أممًا كثيرة إلىٰ نحلة الشيوعية، فصاروا يتخبطون لطلب التساوي في كل شيء)[1]، فالخلل في قضية المساواة أصبح ظاهرة عامة؛ ولذلك تناولها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) التحرير والتنوير: (٥/ ٢٨).

* المطلب الرابع: النظر في طرق العلاج، ومواطن القوة، والإمكانات المتاحة

بعد حصر المشكلات ينبغي تشخيصها ببيان أسبابها؛ ليتسنىٰ رسم طريق الشفاء، بعلاجها، وتجفيف كل قيعة آسنة تصب فيها، ويكون ذلك باستنفار جميع مواطن القوة، وإمكانات المجتمع، وكل ذلك علىٰ شكل نقاط؛ بطريقة العصف الذهني في ضوء ما تم تناوله من هدايات.

فإذا كان الحديث عن واقع الضعف الاقتصادي لمجتمع من المجتمعات؛ تستنفر الأسباب المعالجة، كبيان اهتمام الإسلام بالاقتصاد، وترغيبه في الكسب، ومنعه لكل طريق مالي يضر بالمجتمع، ونهيه عن الإسراف والتبذير، وأمره بالزكاة والصدقة والوقف، وأثر كل هذه الأحكام المتكاملة في النهوض بالاقتصاد، وبيان ما تملكه الأمة من إمكانات مادية، إضافة إلىٰ تلك الثروة الشرعية من توجيهات الوحي المعصوم، كل ذلك مع استحضار ما استخرجه من هدايات؛ ليوازن بينها، كما قال رشيد رضا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ آل عمران: ١٣٩: (وكيف تهنون وتحزنون

وأنتم الأعلون؟! بمقتضىٰ سنن الله - تعالىٰ - في جعل العاقبة للمتقين، الذين يتقون الحيدان عن سننه، وفي نصر من ينصره، ويتبع سننه؛ بإحقاق الحق، وإقامة العدل، والمؤمنون أجدر بذلك من الكافرين، الذين يقاتلون لمحض البغي والانتقام، أو الطمع فيما في أيدي الناس، فهمّة الكافرين تكون علىٰ قدر ما يرمون إليه من الغرض الخسيس، وما يطلبونه من الغرض القريب، فهي لا تكون كهمّة المؤمن الذي غرضه إقامة الحق والعدل في الدنيا، والسعادة الباقية في الآخرة، أي: إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسننه في نظام الاجتماع، بحيث صار هذا الإيمان وصفًا ثابتًا لكم، حاكمًا في ضمائركم، وأعمالكم، فأنتم الأعلون وإن أصابكم ما أصابكم)[1].

(١) تفسير المنار: (٤/ ١١٩).

* المطلب الخامس: التدرج والبدء بالمقاصد العامة، والقضايا الكبرى

المنهج الأمثل في الإصلاح، هو البدء بالقضايا الكبرىٰ التي قدمتها الشريعة، مع عدم إغفال غيرها، وهذه طريقة الأنبياء والمرسلين، فكانوا يبدؤون بالقضايا الإيمانية الكبرىٰ، ثم بالفساد العام الذي يضيّع ضرورات الشريعة.

فكلهم بدأوا بمحاربة الكفر، ثم عالج كل نبي ما ظهر عند قومه من فساد:

فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عالج الفساد المالي- بعد الشرك-، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الأعراف: ٨٥.

ولوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حارب الفاحشة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ الأعراف: ٨٠ - ٨١.

وهود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حارب العتو والعلو في الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ الشعراء: ١٢٨ - ١٣١.

وهكذا ينبغي في التحليل البدء بمعالي الأمور، وجلائل الوقائع، والتدرج في السبر والنظر.

* المطلب السادس: التجرد عن الحكم الذهني المسبق، والرؤية الموجهة بلا برهان

وهذا الضابط هو الأصل في كل مصلح باحث عن الحق، متجرد عن حظوظ النفس وداعي الهوىٰ، فلا ترسبات مسبقة، ولا انطباعية مبيّتة، وإنما قصده الحقيقة المطلقة، فالكل متقرب في جميع أفعاله وأقواله إلىٰ الله، يتلمس هداه، ويتطلب رضاه.

فالحكم علىٰ الواقع ينبغي أن يصوّب فيه النظر إلىٰ هذه المعاني الإيمانية، والأدوات العلمية، بعيدًا عن المواقف الشخصية، أو الانتماءات الفكرية.

وأي انحراف في هذا النظر سيؤدي إلىٰ خلل في تصور الآيات، ومن ثَمَّ الميل في تنزيلها، وبالتالي الجَنَف عن مقصود القرآن.

ولذلك انتُقدت بعض التفاسير؛ لقيامها علىٰ المذاهب المنحرفة لأصحابها، وإضفاء رؤية المفسر الخاصة علىٰ الاختيارات والتطبيقات، ومن ذلك قول الزمخشري: (﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بلغه وعظ من الله، وزجر بالنهي عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ فتبع النهىٰ وامتنع، ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤخذ

بما مضىٰ منه؛ لأنه أخذ قبل نزول التحريم، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ البقرة: ٢٧٥، وهذا دليل بيّن علىٰ تخليد الفساق)[1].

وقد بنىٰ ذلك علىٰ اعتقاده في خلود صاحب الكبيرة في النار[2]، دون جمع بين النصوص الدالة علىٰ أنه تحت المشيئة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء: ٤٨، ١١٦، مع ما تواتر من نصوص الشفاعة لأهل الكبائر.

(١) الكشاف: (٣/ ٥٤٤).

(٢) وهو من الأصول الخمسة للمعتزلة، وقد جمعتها بقولي:

أصولهم في العدل والتوحيد والأمر بالمعروف والوعيد
ومنزل صاحب الكبيرة معلق والخلد في الأخيرة

* المطلب السابع: التوازن في النظر إلى الأحداث والوقائع

وهذا فرع عما سبق؛ فالتوازن يعني عدم تغليب النظرة التشاؤمية، والخطاب اليائس علىٰ التفاؤل والاستبشار؛ فالقرآن يحمل المؤمن علىٰ حسن الظن بالله تعالىٰ، وسعة الصدر، وعدم ضيق العطن، والرفق واللين والتبشير.

وكذلك هو الهدي النبوي، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجبه الفأل الحسن، وقال: «يسّرا ولا تعسّرا، بشّرا ولا تنفّرا، تطاوعا ولا تختلفا»(١)، وقال: «من قال: هلك الناس؛ فهو أهلكهم»(٢).

كما أن التوازن يعني عدم التفاؤل المفرط الذي يؤدي إلىٰ الغفلة، وإهدار الحذر، فالتوازن أساس الحياد والإنصاف.

ومن الأمثلة المضيئة في ذلك: أن السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ لما رأىٰ كثرة التصانيف في زمانه، نظر إليها نظرة مشرقة؛ استنباطاً من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصىٰ إمامه، برقم: (٣٠٣٨)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم: (١٧٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول: هلك الناس، برقم: (٢٦٢٣).

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ النساء: ٨٢، فقال: (وفي بقية الآية العذر للمصنّفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض؛ لأن السلامة عن ذلك من خصائص القرآن)[1].

(١) الإكليل في استنباط التنزيل: (ص: ٩٥).

* المطلب الثامن: الاستقصاء والتحري والاسترشاد بمختلف التخصصات

كثير من جوانب الواقع لا تفهم بادي الرأي، ولا تؤخذ عفو الخاطر، بل لابد من تقليب النظر فيها، والتصويب والتصعيد في خوافيها، وجمع كل ما يتعلق بها؛ لتكتمل صورتها.

ولا يكون ذلك علىٰ وجهه إلا بالاسترشاد بأهل الاختصاص:

فإن كان الواقع المراد تحليله اقتصاديًا أو سياسيًا أو غيره؛ استعين بأهله، كل ذلك دون تشعب يشتت عن أصل الهداية، أو تعمق يخرجها عن محضنها؛ لتسطو علىٰ علوم أخرىٰ، بل يعطي الموضوع حقه، دون إفراط أو تفريط.

ومن ذلك قول الزحيلي في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ البقرة: ٢٧٥: (والربا محض استغلال لحاجة المضطر، وليس له مقابل ولا عوض، فقياسهم فاسد، فمن يشتري شيئًا من الطعام ويدفع ثمنه في الحال، هو محتاج إليه في الأكل أو البذر، أو أي انتفاع يصون به حياته وجسده، أما من يرابي فلا يعقد عقد معاوضة، وإنما يأخذ الزيادة عن أصل الدَّيْن وقت حلول أَجَل الوفاء

بدون مقابلة شيء، بل إن المصارف اليوم تشبه في عملها أفعال الجاهلية؛ بتجميع الفوائد المتراكمة أو المركبة، وأخذ الفائدة وفائدة الفائدة مع مرور السنوات، فصار حَمَلة أسهم المَصْرف يأكلون الربا أضعافًا مضاعفة، وأخذ هذه الزيادة وتوابعها ظلم موجب للإثم والمعصية الكبيرة)[1]، فتنزيله الربا علىٰ واقع المصارف احتاج إلىٰ تحرٍ واستقصاء لحقيقة عقودها، وطبيعة عملها.

(١) التفسير المنير: (٣/ ٨٧).

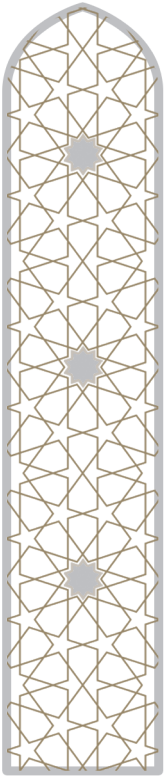
* المطلب التاسع: التركيز على ما له تعلق بالآيات المراد تنزيلها

تنزيل الهدايات علىٰ الواقع لا ينبغي أن يكون عامًا، بل لابد من التركيز علىٰ ما يتعلق بالهدايات المستنبطة، وفي واقع معيّن، وقضية محدّدة؛ حتىٰ يؤتي أُكله، ويحقق المقصود منه، وهو تقويم الواقع تكميلًا، أو تصحيحًا.

فالملاحظ علىٰ بعض من يحاول تنزيل العموم في الخطابات، وانتشار الكلام، بحيث يكون أقرب إلىٰ الخطب والمواعظ، وهذا مع عدم خلوه من فائدة إلا أنه ليس المقصود بهذه الدراسة العلمية التأصيلية التي تنطلق من القرآن؛ لتثبت صلاحيته لكل زمان ومكان، وهذا مطلب موضوعي في منهجية البحث العلمي، فإذا كانت الآيات تتحدث عن تدبر القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤، فيركز نظره الواقعي حوله، دون تعميم الكلام حول كل ما يتعلق بالقرآن الكريم.

وإذا كانت الآيات حول أسلوب الدعوة، فيركز عليه من حيث الخطاب الدعوي، والتواصل، والحوار، ونحو ذلك دون التعميم في كل ما يتعلق بالدعوة، وما له صلة بها، ويقاس علىٰ وزن ذلكم.





المبحث الثالث:

الضوابط في مرحلة التنزيل على الواقع

هذه هي المرحلة الأخيرة، وفيها الربط بين ما سبق تأصيله من هدايات، وما تم تحليله من الواقع، والموازنة بينهما؛ ولذلك أسميتها بـ: مرحلة التنزيل، وتفصيلها من خلال المطالب التالية:



* المطلب الأول: اعتقاد أن القرآن الكريم فيه علاج لجميع الوقائع

وهو دال عليها مستوعب لها، وهذا من خصائص الإسلام؛ صلاحيته لكل الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص، وذلك لما يتميز به من الشمول والعموم، فهو الدين الخاتم الذي أنزل للناس كافة، كما قال تعالىٰ عن مبلّغ هذا الدين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ سبأ: ٢٨، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ الأنبياء: ١٠٧، وهذا مما يميز رسالته عن بقية الرسالات؛ فقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أعطيت خمسًا لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة، وبعثت إلىٰ الناس عامة»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا»، برقم: (٤٣٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا،

وسر هذه الصلاحية والشمول والخلود، ما تتميز به نصوص الوحي من تنوع في الاستدلالات، فهو إما أن يدل علىٰ الحكم تفصيلًا أو تأصيلًا، كما سبق.

ودلالة النصوص علىٰ الأحكام تفصيلاً تكون بإحدىٰ طرق ثلاث:

* الدلالة علىٰ الحكم بمنطوقه ومنظومه.
* الدلالة علىٰ الحكم بفحواه ومفهومه.
* الدلالة علىٰ الحكم بلازمه ومعقوله.

قال الغزالي: (واللفظ إما أن يدل علىٰ الحكم بصيغته ومنظومه، أو بفحواه ومفهومه، أو بمعناه ومعقوله، وهو الاقتباس الذي يسمىٰ قياسًا، فهذه ثلاثة فنون: المنظوم، والمفهوم، والمعقول)[1].

قال ابن القيِّم - في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ المؤمنون: ٦٨-: (والناصح لنفسه،

برقم: (٥٢٣).

(١) المستصفىٰ: (ص: ١٨٠).

العامل علىٰ نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأمّلها، وينزّلها علىٰ الواقع، فيرىٰ العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا؛ فالحديث لك، واسمعي يا جارة)[1].

فبهذه الثلاثية المحكمة لا يمكن أن يتخلف الوحي عن أي حدث، أو شخص، أو واقعة، في إحكام دقيق لا يمكن لأحد من الخلْق أن يأتي بنظام يقربه ويدانيه، فضلًا عن أن يضاهيه، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨.

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٦٧).

* المطلب الثاني: الاستفادة من مناهج العلماء في التنزيل

والمقصود هو النظر في الطرق، والخطوات التي يسلكها العلماء، في تنزيل الهدايات علىٰ واقعهم، بدءً بالصحابة فمن بعدهم؛ فالنظر في منهج العلماء وطرائقهم في كل علم، يكسب قوة في الجانب العملي، ويصقل الملكة للوصول إلىٰ نتائج تطبيقية عميقة، كما يجمع للناظر رؤىٰ متنوعة، ومدارس متعددة، في طريقة النظر التدبري.

وقد كُتبت بحوث تتناول آحادًا من المفسرين، سبق بعضها، فالعلماء سلكوا منهج التصريح، ومنهج التلويح، والتنزيل الكلي، والتنزيل الجزئي[1]، والتأييد للواقع، والتصحيح لبعض الظواهر، وغيرها.

ومن ذلك قول رشيد رضا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ العنكبوت:١٠: (فهذه الآيات وأمثالها

(١) ينظر: تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند المفسرين، للضامر (ص: ٧١) وما بعدها.

تؤيد الآية التي نفسرها في ابتلاء الله المؤمنين الصادقين الداعين إلىٰ الحق، ولكنك تجد أكثر المسلمين الذين تتلىٰ عليهم دائمًا في غفلة عنها، فمن لم يغفل عن تصور المعنىٰ في ذهنه يغفل عن انطباقه علىٰ الواقع، ولذلك تجد الكثيرين منهم يذهبون إلىٰ أن من يؤذىٰ في سبيل الحق بالقول وبالفعل؛ كان وقوع الأذىٰ عليه دليلًا علىٰ أنه مبطل لا يطلب الحق، فما أجهلهم بكتاب الله!! وما أبعدهم عن العلم بسنن الله!! وما أغفلهم عن تأويلهما في خلق الله!!)[1].

(١) تفسير المنار: (٢/ ٢٤٠).

❋ المطلب الثالث: الصياغة العلمية المحررة في تناول القضايا

معلوم أن أساليب الخطاب الشرعي تنقسم إلىٰ ثلاثة أساليب، وهي:

❋ الأسلوب العلمي، وله صيغه واصطلاحاته.

❋ والأسلوب الفكري، وله طريقته وتراكيبه.

❋ والأسلوب الوعظي، وله عباراته ودلالاته.

وقد اجتمعت الثلاثة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ النحل: ١٢٥:

❋ فالحكمة: هي الخطاب العلمي القائم علىٰ الكتاب والسنة.

❋ والموعظة الحسنة: وهي الخطاب الوعظي الذي يخاطب القلوب.

❋ ثم المجادلة بالتي هي أحسن: وهي الخطاب الفكري الذي يخاطب العقول؛ لينتقل من المسلّمات إلىٰ المطلوبات.

والأصل في الموسوعة العالمية للهدايات أنها علمية

تخصصية، فلذلك ينبغي أن تصبغ بالصبغة العلمية في مضمونها وأسلوبها، ولا مانع في بعض المحال؛ لمقتضىٰ الحال من تنوع الأساليب الثلاثة: العلمي الرصين، والفكري العميق، والوعظي البليغ، لكن الأصل غلبة لغة العلم، علىٰ لغة الفكر والوعظ.

ومن التنوع الرائق بين هذه الأساليب قول الألوسي، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الحج: ٣٤ - ٣٥: (وأكثر مشايخ زماننا يرقصون عند سماع الذكر، فما أدري أن يشأ[1] رقصهم عن وجَلٍ منه تعالىٰ، أم عن طمأنينةٍ؟! وسيظهر ذلك يوم تبلىٰ السرائر، وتظهر الضمائر)[2].

فبعد أسلوبه العلمي المتين، استخدم هذا الأسلوب الوعظي الرقيق.

(١) كذا في نسخة الكتاب الورقية والإلكترونية، ولعله: (أَيَنْشَأُ)، أو: (إِنْ نَشَأْ)، والله أعلم.

(٢) روح المعاني: (٩/ ١٥٣).

* المطلب الرابع: الوضوح، وتجنب التراكيب الخفية، والمصطلحات الموهمة

وهذا ضابط مهم؛ فالموسوعة عالمية، وهكذا شأن الكتابات العامة؛ فهي تخاطب عقولاً متنوعة، وألسنة مختلفة، وثقافات متعددة، فلابد أن تكون واضحة في صياغاتها، ودلالاتها، ومعالجاتها للواقع، بعيدة عن الألفاظ الغريبة، والعبارات الموهمة، والمصطلحات المجملة؛ فهذا قد يسبب خللًا واختلافًا في تنزيل الهداية؛ زيادة علىٰ الخلل والخلاف الحاصل في تعاطي الأحداث والوقائع؛ فيكون كما قيل: «ضِغثًا علىٰ إبّالة»[1].

ومن هذه التراكيب والمصطلحات ما يطلق في اللغة المعاصرة: كالمجتمع المدني، والتسامح الديني، والجاهلية الحديثة، و«الديمقراطية»، ونحو ذلك مما قد يسبب اشتراكًا وتداخلاً في التصور، واختلافًا في تفسيرها؛ وبالتالي قد تحرّف الآيات؛ لتوافق بعض مآخذ هذه المصطلحات.

---

(١) (الإبَّالة): الوِقْر من الحطب، و(الضِّغْث): الحزمة التي فوقها، أي: بليّة علىٰ بليّة. ينظر: الأمثال للهاشمي (ص: ١٥٨).

* المطلب الخامس: عدم التكلف في بيان مدى مطابقة الهدايات للواقع

التكلف: اسم لما يفعل بمشقة، أو تصنّع، أو تشبّع، وغلوّ[1].

وهو بهذا المعنىٰ مذموم في كل حال، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ص: ٨٦.

وهو في الكلام عن الله تعالىٰ، والقول في كتابه أعظم ذمًّا، وأشد إثمًا، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ المائدة: ٧٧؛ ولذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من عَلِم فليقُلْ، ومن لم يعلم فليقُلْ: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم، فإن الله قال لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص: ٨٦»[2].

وباب التنزيل لما له من أهمية وتطلّع، وانجذاب للنفوس، قد يقع فيه هذا التكلف، كما هو مشهور عن جماعة من المعاصرين،

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني: (ص: ٧٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الروم، برقم: (٤٧٧٤).

الذين جعلوا القرآن عِضين؛ بتكلّفاتهم البعيدة عن خطابه المبين، وقد وقع من ذلك في الزمان الأول، فقد قال مروان بن الحَكَم إن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الأحقاف: ١٧ ، نزل في عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أنّ الله أنزل عذري»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾، برقم: (٤٨٢٧).

* المطلب السادس: معرفة حدود الألفاظ التي أنزلها الله تعالى ومدى احتمالها للواقع

وهذا يتطلب دقة في فهم دلالات الألفاظ، واستعمالات الشرع، مع دقة في فهم الواقع، وهنا كلام دقيق لابن القيِّم يجلي هذه القاعدة، حيث قال: (ومعلوم أن الله – سبحانه – حدّ لعباده حدود الحلال والحرام بكلامه، وذمّ من لم يعلم حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، والذي أنزله هو كلامه، فحدود ما أنزله الله، هو الوقوف عند حدّ الاسم الذي علّق عليه الحِلّ والحُرمة، فإنه هو المنزّل علىٰ رسوله، وحدّه بما وضع له لغةً أو شرعًا، بحيث لا يُدخل فيه غير موضوعه، ولا يُخرج منه شيء من موضوعه، ومن المعلوم أن حدّ البُرّ لا يتناول الخردل، وحدّ التمر لا يدخل فيه البَلّوط، وحدّ الذهب لا يتناول القُطن؛ ولا يختلف الناس أن حدّ الشيء ما يمنع دخول غيره فيه، ويمنع خروج بعضه منه.

وقد تقدم تقرير هذا وأعدناه لشدة الحاجة إليه، فإن أعلم الخلْق بالدين: أعلمهم بحدود الأسماء التي علّق بها الحِلّ والحُرمة.

والأسماء التي لها حدود في كلام الله ورسوله ثلاثة أنواع:

* نوع له حدّ في اللغة: كالشمس والقمر والبَرّ والبحر والليل والنهار، فمن حمل هذه الأسماء علىٰ غير مسمّاها، أو خصها ببعضه، أو أخرج منها بعضه، فقد تعدّىٰ حدودها.

* ونوع له حدّ في الشرع: كالصلاة والصيام والحج والزكاة والإيمان والإسلام والتقوىٰ ونظائرها، فحكمها في تناولها لمسمياتها الشرعية كحكم النوع الأول في تناوله لمسمّاه اللغوي.

* ونوع له حدّ في العُرف: لم يحدّه الله ورسوله بحدّ غير المتعارف، ولا حدّ له في اللغة، كالسفر والمرض المبيح للترخص، والسَّفَه والجنون الموجب للحَجْر، والشِّقاق الموجب لبعث الحَكَمَين، والنشوز المسوّغ لهجْر الزوجة وضربها، والتراضي المسوّغ لحِلّ التجارة، والضِّرار المحرّم بين المسلمين، وأمثال ذلك، وهذا النوع في تناوله لمسمّاه العُرفي كالنوعين الآخرين في تناولهما لمسمّاهما)[1].

(١) إعلام الموقعين: (١/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

* المطلب السابع: تقديم الأهمّ فالمهمّ

هذا الضابط من القواعد العقلية فضلًا عن الشرعية، وهو داخل في الشرعيات والدنيويات، ففي بداية الرسالة بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد، ثم الصلاة، ثم بتأسيس دولة الإسلام الأولىٰ في المدينة، وبدأ فيها بالمسجد، ثم التأليف بين الأنصار، ثم بقية الأعمال.

وحينما أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا إلىٰ اليمن، أوصاه بتقديم الأولىٰ من التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

وهذا هو شأن جميع الأنبياء والمرسلين، بدأوا بالأهمّ وهو أصل التوحيد، ثم بقية ممارسات أقوامهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل: ٣٦.

فلذلك يقدّم في التناول الواقع الديني علىٰ الدنيوي، والعَقَدي علىٰ الشرعي، والعام علىٰ الخاص، والاجتماعي علىٰ الفردي، والمتفق عليه علىٰ المختلف فيه، وقُلْ مثل ذلك في دعوة غير المسلمين؛ فإنه لا يمكن أن تسدّ جميع الثغرات؛ فغير المسلمين خليط غير متجانس من المِلَل، وكل ملة لها تصوراتها، وشُبُهاتها،

والطريقة التي تناسبها، ثم في الطوائف المنتسبة للإسلام هناك جملة من الفِرَق المنحرفة التي ينبغي تحديد طرق معالجتها، وآلية التعامل معها، ثم في الأمراض المستعصية في المجتمعات، ثم الفتن العامة التي تعصف يمنة ويسرة، وهكذا في رفع مستوىٰ الوعي العام للعوام، وتعليم أحكام الإسلام[1].

فمن تأمل في كل هذه القضايا الكبار وغيرها، وسعىٰ في معاليها فلا بد له من التدرج فيها، فيقدم الأهم في كل شيء، كما في الكلمة الحكيمة لشيخ الإسلام حينما قال: (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرَين، وشرّ الشرَّين، وينشد:

إنَّ اللَّبيبَ إذا بَدا مِنْ جِسْمِهِ
مَرَضانِ مُخْتَلِفانِ داوَىٰ الأَخْطَرا) [2]

(١) ينظر: وقفات تصحيحية للمؤلف (ص: ٥١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٥٣ - ٦١).

* المطلب الثامن: مراعاة المصالح والمفاسد، وحال الأمة وتنوعها

كما هو معلوم بأنه ليس كل ما يعلم يقال؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تبشّرهم فيتّكلوا»[1]، وهذا يدل علىٰ أن العلم التفصيلي لا يلزم جميع الناس، وبخاصة إذا خشي منه مفسدة من إساءة فهم، أو سوء قصد، فلا يخاض فيما عنه مندوحة، عند حصول الضرر، أو ترتب ما لا يحمد من الأثر، كالتفاصيل السياسية، أو الصراعات الطائفية، أو الانتماءات الفكرية ونحوها، مما لا يصلح الانخراط في شُعَبه، في عمل يرجىٰ له الدوام والقبول؛ لذلك قال شيخ الإسلام: (فموارد النزاع إذا كان في إظهارها فساد عام؛ عوقب من يُظهرها، كما يعاقب من يشرب النبيذ متأوّلًا، وكما يعاقب البُغاة المتأوّلون)[2].

وقال الشاطبي: (ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، برقم: (٢٨٥٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكّ فيه دخل الجنة وحرّم علىٰ النار، برقم: (٣٠).

(٢) جامع المسائل: (٥/ ٢٧٩).

هو حق يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة، ومما يفيد علمًا بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلىٰ حال، أو وقت، أو شخص)[1].

بل من يتأمل فيما هو أعظم من ذلك يعلم يقينًا النهج النبوي القويم؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا»[2]، فإذا كان هذا مع قراءة القرآن الكريم، فباب تأويله وتنزيله أولىٰ!!

(١) الموافقات: (٥/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، برقم: (٥٠٦٠)، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، برقم: (٢٦٦٧).

* المطلب التاسع: تطابق الأسماء لا يعني تطابق الحقائق

هذا من ضوابط التنزيل الهامة، وهي قاعدة عامة في المصطلحات الشرعية، فالتطابق اللفظي لا يعني ضرورةً التطابق المعنوي، فيراعىٰ ذلك عند تنزيل الهدايات علىٰ الحوادث؛ وإلا كان من تأويل القرآن علىٰ غير تأويله، كمن يجوّز السجود لبشر؛ استدلالًا بالسجود لآدم ويوسف عليهما السلام، مع اختلاف حقيقة السجود فيهما.

ويدخل في ذلك بعض المسميات التي تطلق في بعض كتب التفسير، من نحو قول الزمخشري: (كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم)[1]، فكثيرًا ما يطلق مصطلح أهل العدل والتوحيد، وأهل الحق، والمراد بهم المعتزلة[2].

---

(١) الكشاف: (١/ ٦٦٦).

(٢) ويُدخلون في العدل نفي القدَر، وفي التوحيد نفي الصفات، وقد سبقت أصولهم الخمسة، وينظر في تفصيلها: المعتزلة وأصولهم الخمسة، لعوّاد المعتق.

وإذا ذكر الله تعالىٰ الذرة في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١﴾ يونس: ٦١ ، وظهر في العلم الحديث مصطلح «الذَرَّة» بخصائصها، فهذا لا يعني ضرورة أنها بعينها المقصودة من الآية، فينبغي التنبه عند التنزيل، وينظر إلىٰ حقيقة الأمر، لا ظاهر اللقب، فتقرر حقائق لازالت فرضيات أو نظريات، ويؤتىٰ معنىٰ القرآن الكريم من قِبَلها.

* المطلب العاشر: الإجمال قدر الإمكان، والتعميم دون التعيين

عندما تتتابع حلقات الفتن، وتتلاطم أمواج المحن، لا يخوض الموفق في تفاصيلها، وإنما يجمل في أصولها، ويعمّم في إصلاحها، وهو منهج قرآني حكيم؛ فالله تعالىٰ لم ينص علىٰ أسماء المشركين، فلم يذكر في هذه الأمة إلا «أبا لهب»؛ لخصوصية فيه، ومنها: أنه أول كافر بالحق في هذه الأمة؛ ولبيان أنه لا نسب إلا التوحيد، وغيرها من الحِكم.

وكذلك كان من هدي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه غالبًا ما يعمّم الوصف، ولا يعيّن الشخص، فيقول: «ما بال أقوام؟!»[1] كما في نصوص متكاثرة.

فهنا كذلك ينبغي تجنب التصريح بالأسماء، والدول، والمؤسسات، ونحوها؛ ليعم التقويم أعيانها، وكل من تحلىٰ بأوصافها؛ فيبقىٰ للقرآن خلوده الزماني والمكاني، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الأنعام: ١٩، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «يعني: ومن بلغه هذا القرآن، فهو له نذير»[2].

(١) ينظر علىٰ سبيل المثال لا الحصر: صحيح البخاري رقم: (٤٥٦، ٧٥٠، ٢٧٣٥)، وصحيح مسلم رقم: (١٤٠١، ٢٣٥٦).

(٢) رواه الطبري في تفسيره: (١١/ ٢٩١)، بإسناد حسن، كما في التفسير الصحيح لحكمت بشير: (٢/ ٢٣١).

* المطلب الحادي عشر: التمييز بين القطع والظن، ومحال الاجتهاد

الأصل في التنزيل أنه من قضايا الاجتهاد؛ فقد يفهم البعض من المعنىٰ ما يدل علىٰ الواقع، وقد لا يفهمه البعض، وهذا علىٰ نحو تحقيق المناط عند الأصوليين.

لكن هناك بعض الوقائع تدخل في عموم الهدايات يقينًا، فعلىٰ الناظر أن يميّز بين مواضع الظن، ومواضع اليقين، فيتحرىٰ الصياغة المناسبة لكل مقام، وهذا دأب المحققين من السابقين؛ فقد قالت أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدثنا: أن في ثقيف كذابًا ومُبيرًا؛ فأما الكذاب: فرأيناه، وأما المُبير: فلا إخالك إلا إياه»[1].

قال النووي: (والمُبير: المُهلِك، وقولها في الكذاب «فرأيناه»: تعني به المختار بن أبي عُبيد الثقفي، كان شديد الكذب، ومن أقبحه: ادعىٰ أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيه، واتفق

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، برقم: (٢٥٤٥).

العلماء علىٰ أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عُبيدٍ وبالمُبير: الحجاج بن يوسف، والله أعلم)[1].

فجزمت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالأول؛ للاتفاق عليه، وغلّبت الظن في الثاني.

(١) شرح النووي علىٰ مسلم: (١٦/ ١٠٠).

* المطلب الثاني عشر: تجنب التأريخ للأحداث، أو التنبؤ عن مستقبل

القرآن صالح لكل زمان ومكان، فكل ما لم يخصص بزمن بعينه، أو مكان بعينه، فالأصل أن مدلوله عام لا ينبغي قصره بتاريخ زماني، وإنما يذكر التنزيل علىٰ أنه بعض أفراده، وليس حجْراً عليه؛ لذلك قال ابن باديس: (إن القرآن كتاب الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن)[1].

وأعظم من ذلك التنبؤ عن مستقبل لبعض الوقائع بناء علىٰ بعض الدلالات، وأكثر ما تقع هذه الإشكالات عند من يكثر التحليل السياسي للأحداث، أو يعتمد طريقة الإعجاز العددي للآيات، وهي طريقة عليها كثير من التحفظ.

ومن الأمثلة المزعجة للتنبؤ في التنزيل، قول أحد الكتّاب: (أستطيع أن أحلف ولا أستثني أنّ ملاحم آخر الزمان، والتي تبدأ بالحرب العالمية الثالثة والأخيرة، قد كشّرت عن أنيابها،

(١) مجالس التذكير: (ص: ٣٧٧).

وشمّرت عن ساعِدَيها، وكشفت عن ساقَيها)[1]، إلىٰ أمثالها من تنبؤات جرّت أنواعًا من التحريفات العلمية، والمفاسد العملية.

والله أعلم، وهو الهادي إلىٰ الرشاد.

(١) هو صاحب كتاب: (هرمجدون)، ينظر: المهدي وفقه أشراط الساعة، لمحمد المقدم، (ص: ٦٣٢).



الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله وعطائه تتم الصالحات، وفي نهاية هذه الجولة المختصرة مع الضوابط المتعلقة بالتنزيل، يمكن أن نخرج بما يلي:

١- أهمية موضوع تنزيل الهدايات القرآنية علىٰ الواقع، وخطورته؛ فهو **بمنزلة الفتوىٰ**، التي تنزّل فيها الأحكام علىٰ الوقائع.

٢- ضرورة وضع **ضوابط للتنزيل**؛ حتىٰ لا يُتجرأ علىٰ القرآن؛ فيقع البعض في التقوّل علىٰ الله تعالىٰ بغير علم.

٣- أنه لابد في التنزيل علىٰ الواقع من الموازنة بين ثلاثية المراحل السابقة، وهي: **التأصيل، والتأويل، والتنزيل**.

٤- أن العلماء بذلوا جهودًا في تنزيل القرآن الكريم علىٰ الواقع، وفي ذلك ثروة علمية كبيرة، وتراث ثري، في مختلف المجالات.

٥- لازالت الحاجة ماسة لمزيد من الأبحاث المتعلقة بالتنزيل علىٰ الواقع؛ ليتحقق للقرآن الكريم خلوده وشموله.

والحمد لله أولًا وآخرًا،،،

المصادر والمراجع

١- أحكام القرآن، لابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٢- الأدب المفرد، للبخاري، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٣- إعلام الموقعين، لابن القيِّم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤- الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، دار الكتب العلمية، ١٩٨١م.

٥- الأمثال، للهاشمي، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ.

٦- تاج العروس، للزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٧- تاريخ محمد عبده، لمحمد رشيد رضا، دار الفضيلة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.

٨- التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، سنة النشر: ١٩٨٤م.

٩- التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٠- تفسير السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١١- تفسير الطبري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٢- التفسير الكبير، للرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٣- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، للهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

١٤- التفسير والمفسرون، للدكتور محمد الذهبي، دار الحديث، ١٤٣٦هـ.

١٥- تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند ابن القيِّم، للدكتور يحيىٰ الزمزمي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، الشبكة.

١٦- تنزيل الآيات علىٰ الواقع عند المفسرين، للدكتور عبد العزيز الضامر، جائزة دبي الدولية، ١٤٢٨هـ.

١٧- تنزيل الآيات علىٰ الواقع، للدكتور محمد العواجي، مؤتمر مقدس: ٨، عام ٢٠١٩م.

١٨- جامع المسائل، لابن تيمية، دار عالم الفوائد، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢ هـ.

١٩- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٢٠- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢١- روح المعاني، للألوسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

٢٢- زاد المعاد، لابن القيِّم، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٣- السلسلة الصحيحة، للألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٤- سنن ابن ماجه، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٥- سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي، سنة النشر: ١٩٩٨م.

٢٦- سير أعلام النبلاء، للذهبي، دار الحديث- القاهرة، الطبعة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٧- شرح النووي علىٰ مسلم، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٨- صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٢٩- صحيح السيرة النبوية، للألباني، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.

٣٠- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣١- فتح القدير، للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ.

٣٢- الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

٣٣- الكليّات، للكفوي، مؤسسة الرسالة.

٣٤- مجالس التذكير، لابن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية الجزائرية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٥- مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣٦- مدارج السالكين، لابن القيِّم، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٣٧- مستدرك الحاكم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٣٨- المستصفىٰ، للغزالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣٩- مسند أحمد، تحقيق الأرناؤوط، مكتبة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٤٠- المعتزلة وأصولهم الخمسة، للدكتور عواد المعتق، مكتبة الرشد، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ.

٤١- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، دار الفكر، سنة النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٢- المفردات، للراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

٤٣- المهدي وفقه أشراط الساعة، لمحمد المقدم، الدار العالمية للنشر والتوزيع، سنة النشر: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٤٤- الموافقات، للشاطبي، تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٥- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، لحكمت بن بشير ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

٤٦- موسوعة النحو والصرف والإعراب، لإيميل بديع، دار العلم للملايين، ١٩٩٤م.

٤٧- الهدايات القرآنية، كرسي الملك عبد الله للقرآن الكريم، مكتبة المتنبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٨هـ.

٤٨- وقفات تصحيحية في المسيرة الدعوية، دار الدراسات العلمية، مكة المكرمة، عام ٢٠١٥م.

ضوابط
تنزيل الهدايات القرآنية
على الواقع

عرض تقديمي



أهمية الموضوع

١ تعميق عظمة القرآن الكريم، والتأكيد على شمول هدايته.

٢ تحقيق الغاية من إنزال القرآن، وهي إصلاحه لواقع الناس أفرادا ومجتمعات.

٣ ربط الناس بالقرآن الكريم، وتوضيح معانيه، وتقريبه لأفهامهم.

٤ شغف أكثر الناس به، وتلقفهم لكل ما يقال فيه، وتسلط غير المختصين عليه.

٥ كثرة الأطروحات العلاجية البعيدة عن الهدي القرآني، والفتن الواقعة بذلك.

٦ ضرورة التأصيل للموضوع؛ لخطورة الأمر حيث يعتبر توقيعا عن الله تعالى.

٧ إحياء طريقة العلماء في اعتماد القرآن منهجاً أصيلاً لإصلاح الواقع (ومن بلغ).

مفهوم تنزيل الهدايات على الواقع

مقابلة الهدايات القرآنية على الواقع المعاصر؛ لتقويمه وفق منهج علمي.

الربط بين الدلالات القرآنية والواقع المعاصر؛ لتقويمه وفق منهج علمي.

تقويم الواقع المعاصر، من خلال تطبيق الإرشادات القرآنية؛ تأييدًا وإصلاحًا وفق منهج علمي.

المصطلحات ذات العلاقة

التنزيل

١ الاستشهاد
طلب نص يشهد لواقعة معينة
(جدلاً - وأولادكم)

٢ الاستدلال
طلب نص يدل على حكم معين
(عَقَدي - فقهي)

٣ الإعجاز العلمي
دلالات الآيات على المكتشفات
العلمية الحديثة

المبحث الأول
الضوابط في مرحلة التأصيل للهدايات

١ الإيمان بشمول القرآن تنصيصاً أو تأصيلاً (التقنية)

٢ تحري الهدايات الكلية وصياغتها بما يمكن تنزيله (الإرث)

٣ مراعاة أحوال النزول واستحضارها (القرطبي)

٤ تصنيف الهدايات باعتبار مجالاتها ولو ذهنياً

٥ التفريق بين الحصر والتمثيل والاستثناس (تخونوا - تختصمون)

٦ اعتبار الهدايات حاكمة على الواقع لا العكس (الغرب)

٧ التفريق بين السياقات (الآخرة - سكرة - تهديد)

٨ تعميم المعاني وتكثيرها

المبحث الثاني
الضوابط في مرحلة التحليل للواقع

١ تقسيم الواقع وتصنيفه إلى المجالات المختلفة

٢ استقراء الجوانب الإيجابية في مختلف جهات الواقع لتعزيزها وتكميلها

٣ حصر المشكلات والتحديات القائمة في الجملة

٤ النظر في طرق العلاج وموطن القوة والإمكانات المتاحة

٥ التدرج والبدء بالمقاصد العامة والقضايا الكبرى

٦ التجرد عن الحكم المسبق والرؤية الموجهة بغير برهان

٧ التوازن في النظرة إلى الأحداث والوقائع بين التهويل والتهوين

٨ الاستقصاء والتحري والاسترشاد بمختلف التخصصات

٩ التركيز على ما له تعلق بالآيات

المبحث الثالث
الضوابط في مرحلة التنزيل على الواقع

١ اعتقاد أن القرآن الكريم فيه علاج لجميع الوقائع

٢ الاستفادة من مناهج العلماء في التنزيل

٣ الصياغة العلمية المحررة في تناول القضايا

٤ الوضوح وتجنب التراكيب الخفية والمصطلحات الموهمة

٥ عدم التكلف في بيان مطابقة الهدايات للواقع

٦ معرفة حدود الألفاظ التي أنزلها الله تعالى ومدى احتمالها للواقع

٧
تقديم الأهم فالمهم

٨
مراعاة المصالح والمفاسد
وحال الأمة وتنوعها

٩
تطابق الأسماء
لا يعني تطابق الحقائق

١٠
الإجمال قدر الإمكان
والتعميم دون التعيين

١١
التمييز بين القطع والظن
ومحال الاجتهاد

١٢
تجنب التاريخ للأحداث
أو التنبؤ عن مستقبل

تطبيقات

(الأحبار/ الرازي)

(الجهاد، الخشوع/ ابن العربي)

(البدع/ القرطبي)

(أفحكم الجاهلية/ ابن كثير)

(المشركات/ رضا)(فتنة/ ابن باديس)

(تفرقوا/ شلتوت)

فهرس المحتويات

المقدمة ٧
أهمية تنزيل الهدايات على الواقع ٨
الدراسات السابقة ١٠
منهج البحث ١١
خطة البحث ١٢
التمهيد ١٣
المطلب الأول: تعريف الهدايات القرآنية ١٣
المطلب الثاني: مفهوم تنزيل الهدايات القرآنية ١٥
المطلب الثالث: مصطلحات ذات علاقة ١٧
المبحث الأول: الضوابط في مرحلة التأصيل للهدايات ٢١
المطلب الأول: الإيمان بشمول القرآن ٢٣
المطلب الثاني: تحري الهدايات الكليّة ٢٦
المطلب الثالث: مراعاة أحوال النزول ٢٩

المطلب الرابع: تصنيف الهدايات باعتبار مجالاتها .. ٣١
المطلب الخامس: التفريق بين الحصر والتمثيل ٣٣
المطلب السادس: اعتبار الهدايات حاكمة علىٰ الواقع ٣٦
المطلب السابع: التفريق بين السياقات المختلفة..... ٣٩
المطلب الثامن: تعميم المعاني المحتملة وتكثيرها... ٤٢
المبحث الثاني: الضوابط في مرحلة التحليل للواقع ٤٥
المطلب الأول: تقسيم الواقع إلىٰ المجالات المختلفة.... ٤٧
المطلب الثاني: استقراء الجوانب الإيجابية ٤٩
المطلب الثالث: حصر المشكلات، والتحديات القائمة.... ٥١
المطلب الرابع: النظر في طرق العلاج، ومواطن القوة ٥٣
المطلب الخامس: التدرج والبدء بالمقاصد العامة... ٥٥
المطلب السادس: التجرد عن الحكم الذهني المسبق ٥٧
المطلب السابع: التوازن في النظر إلىٰ الأحداث والوقائع.. ٥٩
المطلب الثامن: الاستقصاء والتحري والاسترشاد... ٦١
المطلب التاسع: التركيز علىٰ ما له تعلق بالآيات المراد تنزيلها٦٣

المبحث الثالث: الضوابط في مرحلة التنزيل على الواقع ...٦٥
المطلب الأول: اعتقاد أن القرآن الكريم فيه علاج لجميع الوقائع ٦٧
المطلب الثاني: الاستفادة من مناهج العلماء في التنزيل... ٧٠
المطلب الثالث: الصياغة العلمية المحررة..... ٧٢
المطلب الرابع: الوضوح، وتجنب التراكيب الخفية... ٧٤
المطلب الخامس: عدم التكلف في بيان مدى مطابقة الهدايات للواقع..... ٧٥
المطلب السادس: معرفة حدود الألفاظ التي أنزلها الله تعالى ومدى احتمالها للواقع ٧٧
المطلب السابع: تقديم الأهمّ فالمهمّ ٧٩
المطلب الثامن: مراعاة المصالح والمفاسد ٨١
المطلب التاسع: تطابق الأسماء لا يعني تطابق الحقائق.. ٨٣
المطلب العاشر: الإجمال قدر الإمكان..... ٨٥
المطلب الحادي عشر: التمييز بين القطع والظن ٨٦
المطلب الثاني عشر: تجنب التأريخ للأحداث ٨٨

الخاتمة ٩١
المصادر والمراجع ٩٣
عرض تقديمي ٩٩
فهرس المحتويات ١٠٩